بلاغة الوصية قراءة في نصوص تراثية

م . د. دنيا طالب محمد
جامعة ذي قار / كلية القانون
Email:dunea-t@utq.edu.iq

الملخص

تهدف هذه الدراسة الى البحث في بلاغة الوصية كونها من الاجناس التعبيرية ذات الحضور البين في التراث العربي الاسلامي ، وهي خطاب مرن وراجح ، تمتاز بأنها ليست قولا عفويا ارتجاليا ، ولا وليدة لحظة نفسية استشعرت فيها الذات ضعفها وقرب فنائها ، فبادرت للبوح بمكنونها . بل هي خطاب غائي خاضع لاستراتيجية قولية تروم التغيير وإيجاد الانسان الافضل في واقع احسن بما يعسر معه فصلها عن غاياتها الحجاجية الاقناعية .

ما نروم إليه في هذا البحث هو قياس تجليات البلاغة لهذا الجنس القولي والتي توضحت لدينا في ثلاثة ركائز يسند بعضها بعضا . جاءت موزعة على ستة محاور: ـ

المحور الاول : معنى الوصية

المحور الثاني : الوصية : إمكانات البلاغة وإشكالات الجنس

المحور الثالث : الوصية بين الغرض البلاغي والبعد الجمالي

المحور الرابع : الموصي وسمة الاستضعاف

المحور الخامس : الموصى وسمة التخويف

المحور السادس : الوصية والتنويع في الحجج

وهذه المحاور اعلاه مثلت خطة البحث .

الكلمات المفتاحية : الوصية , نصوص تراثية , البلاغة

Keywords:Commandment, Traditional texts, eloquence

المحور الاول

معنى الوصية

(وصى) الواو والصاد والحرف المعتل: اصلٌ يدل على وصل شيء بشيء ، ووصيت الشيء : وصلته , ويقال : وطئنا ارضاً واصية , اي إن نبتها متصل قد امتلأت منه . والوصية من هذا القياس ,كأنه كلامٌ يوصى اي يُوصل يقال : وصيتهُ توصية وأوصيته إيصاء [1]

واوصى : اوصيت له بشيء , واوصيت اليه ,إذا جعلته وصيّك , والاسم الوصِاية و الوصَاية , بالكسر والفتح , واوصيته[2] ,ووصيته ايضاً توصيه بمعنى , والاسم الوصاة , وتواصى القوم , اي أوصى بعضهم بعضاً وفي الحديث " استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان " [3]

وفي القرآن الكريم : " يوصيكم الله في اولادكم للذكر مثلُ حظْ الأنثيين"[4] , وقوله تعالى " وبعهد الله اوفوا ذلكم وصّاكم به لعلكم تذكرون"[5]. والوصية هنا عهد من الله عز وجل على المؤمنين ان يوفوه ويقوموا به , وهو من عموم ما كُلّفوا به من الفرائض .

اما الوصية المراد بها تناقل العبر , وتوجيه الدروس فقد جاءت في غير موضع من الشعر كقول عنترة [6] :

ولقد حفظت وصاة عمي بالضحى إذ تقلص الشفتان عن وضح الفم

فالوصية إذن من الوصل والاتصال ويتضمن هذا الاتصال المعنيين المادي والمعنوي وهو محاولة الاستمرار ضد الانقطاع . وهذا المبتغى من المعنى الاصطلاحي اي ايصال الخبرة ونقل التجربة ومدّ جسور المعرفة التي يتناقلها البشر بغية تحقيق الخير لهم بشكل عام أيّا كان ميدان تلك الوصية , فالوصية تضمن اتصال السلوك السليم والرأي السديد عن طريق نقله الى الاجيال ؛وعليه فإن الوصية تلتبس بالنصح والإرشاد . إلاّ أن النصح وان قارب الوصية يتميز عنها بشيء بسيط , يدل على ذلك ان ابن سيدة [7] جمع بين اللفظين في عنوان واحد بقوله " النصيحة والوصاة" . وقد عرف الادب العربي عدداً كبيراً من الوصايا التي صدرت عن عدد كبير من الاشخاص من ذوي الخبرات المتعددة , والرؤى المختلفة .

المحور الثاني

الوصية؛ إمكانات البلاغة وإشكالات الجنس

من المعروف ان الجنس الأدبي هو مؤسسة ثابتة بقوانينها ومكوناتها النظرية والتطبيقية , حيث يتعارف عليها الناس , الى ان يصبح الجنس قاعدة معيارية في تعرف النصوص والخطابات والاشكال , والتمييز بينها تجنيساً وتنويعاً وتنميطاً . ويتحدد الجنس الادبي بوجود قواسم مشتركة او مختلفة بين مجموعة من النصوص , بوصفها بنيات ثابتة متكررة ومتواترة من جهة , أو بنيات متغيرة او متحولة من جهة اخرى . وهذا ما يجعل تلك النصوص والخطابات تصنّف داخل صيغة قولية أو جنس او نوع معين . وتعد الوصية من الاجناس التعبيرية ذات الحضور البين في التراث العربي , فقد وظّفها السياسيون والفقهاء والشعراء والمتصوفة والبلاغيون وكتاب الأدب العام وغيرهم .

فهي تمثل الخطاب المرن والراجح الذي يرد في صورة النص المتكامل ذي البنية المستقلة , متخذة الصيغة النثرية أو الشعرية أو المختلطة , وقد ترتحل فتستدعي عنصراً مكوناً لأنماط قولية مغايرة , قريبة منها , كالخَطبة والحكمة والمثل والرسالة والموعظة والخطاب الديني[8] , او بعيدة عنها , كالخطاب التاريخي والسردي والسيري ....الخ , كما انها تتعدد حجماً وموضوعات وسياقات ,وترتبط بأوضاع ثقافية وتداولية تند عن الحصر[9]

وإذا كان البعض قد عدّها " صورة مصغرة لنمط الكتابة قديماً ومعبرة عن خاصية الأدب العربي وهو الإيجاز , بوصفه اسمى المطالب البلاغية , واكثرها شهادة على مراتب البيان" [10] . فإنها اكثر من ذلك , يمكن ان تعد من ابرز الروافد المؤسسة للكتابة الابداعية في تاريخ النثر العربي , بالنظر الى كثرة انتشارها ودرجة استهلاكها وتنوع اشكالها , وقدرتها على التسلل

الى مختلف الخطابات الأخرى . وقد آثرنا في هذا البحث تحليل وصايا وردت في كتب تراثية مثلت النموذج المتكامل عن خطاب الوصية . فهي ليست قولاً عفوياً ارتجالياً, ولا وليدة لحظة نفسية استشعرت فيها الذات ضعفها وقرب فنائها فبادرت للبوح بمكنونها . بل هي خطاب غائي , خاضع لاستراتيجية قولية تروم التغيير وايجاد الإنسان الأفضل في واقع احسن , بما يعسر معه فصلها عن غاياتها الحجاجية و الإقناعية. والوصية بطبيعتها ترتبط بلحظات خاصة , كأن تكون مرتبطة ببرهة سياسية خاصة , كما هو مألوف في عديد من الوصايا التي تسبق الخروج الى المعارك او إعداد الموصى للمواجهة او السفر أو الإقدام على أمر اجتماعي ما .

تقودنا هذه الموضوعات مجتمعة الى مسألة النصوص التي نشتغل عليها في هذا البحث . فقد توزعت الوصايا في آثار كبيرة متنوعة الاغراض متشعبة المواضيع منها ما يمت بصلة الى الأدب أو اللغة , ومنها ما هو أدخل في التاريخ , وقد رأينا ان ندرس منها ما يتصل بالأدب في معناه الواسع . وعلى هذا النحو فإن آثار ادبية مثل (البيان والتبيين ,الأغاني ، الأمالي ، زهر الآداب وثمر الالباب , امالي المرتضى ، تاريخ الطبري ،شرح بن ابي الحديد ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ....) تمثل النواة الاصلية التي نتخذها شواهد على فن الوصية ــ وقد وجدناها مبثوثة وبكثرة في ثناياها ــ نتبين من خلالها خصائصها ونرصد بلاغتها .

ان الملامح البلاغية العامة بقدر ما تشير الى غنى خطاب الوصية وحيويته , تنبيء عن هويته الإجناسية غير المستقرة , فرغم ان الموصي يعين مخاطبه : (من الوالد....الى المولود) , أو من شخص ذو هيبة ومكانة الى قومه أو من قائد ذو سلطة الى رعيته , جاعلا افق التلقي واسعاً ضمن دائرة الكتابة المتصلة بالذوات , في علاقتها بمحيطها الاسري والاجتماعي والسياسي , وبوظيفتها التربوية الترشيدية , إلا ان ذلك يبقى معطى غير ضابط الهوية الاجناسية لهذا القول , بالنظر الى تداخله مع اجناس اخرى كالرسائل مثلا , خاصة الرسائل الاخوانية, بما هي كتابة للذات في علاقتها بالمحيط الاسري والاجتماعي ومحكومة بغايات ترشيدية محضة .

وفي النصوص ملفوظات تصرح بتأطير المتكلم مادته ضمن دائرة الوصية , كقولهم :" فاحفظوا عني ما اوصيكم به ...." [11]

- و"احفظوا وصيتي...." [12]
- "قفوا اوصيتكم بعشر فاحفظوها عني...." [13]
- " اوصيك بتقوى الله..." [14]
- " أوصيك ان تتخذ صَغير المسلمين ولداً..." [15]
- " واني موصيك بوصية فاحفظها...." [16]
- "اي بني اجلس امنحك وصيتي ...." [17]

لكن في الآن ذاته ثمة ملفوظات عديدة مبثوثة في النص , تشير الى حضور خطابات اخرى كالخطاب الديني والتاريخي والسيري , وخطاب ادب الامثال والموعظة والدعاء , وحتى الخطاب الفلسفي . وهي كلها خطابات تستدعي بشكل من الاشكال في نص الوصية , فتفرض على البحث في البلاغة النوعية لهذه الوصية , مراعاة هذا التدخل , واستحضار كونها محسوبة على الكتابة المتحركة وغير الثابتة.

المحور الثالث

الوصية بين الغرض البلاغي والبعد الجمالي

ان المتتبع لنصوص الوصايا يجد ان قائليها هم المثقفون والأدباء والكتاب والعلماء واكابر رجالات الدولة , والامراء والولاة والحكام وكل هؤلاء يحَّركهم هاجس واحد هو عصمة الموصى من الزلل , ليعيش في حياة الموصي او بعد فنائه في وضع مأمون من الانحراف أو الفشل , ويكون مؤهلا لخوض معركة الصراع مع الحياة وإكراهات الزمن.

لعل من تجليات البلاغة النوعية للوصية , كونها خطابا يولي للمضمون أهمية بالغة , فالدلالة في الوصية مكون اساس , لانها تروم تحقيق التخليق , واحداث التغيير في الواقع الخارجي , فالوصية في مجملها أوامر ونواه , ودروس وعبر وحكم وامثال , وتأملات في احوال الانسان والحياة والموت وحقائق متنوعة , يوجهها الموصي متتابعة ومكثفة بصيغ مختلفة لها رونق خاص ينبثق عن المضامين الشريفة وطرق صياغة العبارة فيها وهو ما اشار اليه عبد القاهر الجرجاني بقوله :" وان من الكلام ما هو كما هو شريف في جوهره كالذهب الإبريز , الذي يختلف عليه الصور , وتتعاقب علية الصياغات وجل معول من شرفه على ذاته , وان كان التصوير قد يزيد في قيمته ويرفع في قدره"[18]

ويمكن حصر اهم القضايا المضمونية لمجموع الوصايا التي اطلع عليها البحث في :-

1- التعريف بذات الموصي وتجربته العميقة في الحياة وما أوقفته عليه من حقائق.
2- التعريف بالموصى مولوداً حدثاً لم يخبر الدنيا بعد, محكوما بمغريات وآمال مهلكة.
3- التعريف بحقيقة الحياة وخطورتها , وما تستلزمه من تنبيه واستعداده لما بعدها.
4- التذكير بالتاريخ وبأخبار الأولين لاستخلاص العبر والدروس.
5- لخصت الوصية ادب الحياة العامة والخاصة , وبينت سبل التعامل مع الآخرين.
6- وضعت الوصية قواعد عامة لكثير من الوظائف التي تختلط بالعامة وتتولى شؤونهم .

وهذه مؤطرة في مجملها في اتجاهين توضحها الخطاطة الآتية :-

الوصية

الصلاح الفردي ومظاهره	الصلاح الاجتماعي ومظاهره
- الذكر - الدعاء	- إقامة مجتمع انساني مثالي - يكون الفرد فيه عنصرا مفيداً للآخرين

- التزام العبادات
- الفرائض

واللافت ان الموصي وهو يتحرك ضمن حدود هذه الموضوعات لا ينسى نفسه , بل انه يجمل نفسه مع المخاطب وهذا اتمّ للفائدة واعظم للعائدة , كما يتيح لنفسه هامشاً واسعاً من الحرية ,فيعرض القضايا وفق ما يرى انه نهج كفيل بإنفاذ الرسالة الى الولد او الناس بصورة عامة فأحياناً يصدر توصيات متتابعة , يراكمها مجملة وعامة ,واحياناً يعمد الى التفصيل والتفسير الدقيق مثل:-

- حقيقة الحياة الدنيا
- حقيقة الانسان وحقيقة الطباع البشرية في الواقع المشهود
- اخبار الأولين والامم السابقة .

- النصح والارشاد فيما يخص امور القيادة والجهاد.

- حقيقة الدعاء .

– حقيقة المرأة

- بالإضافة الى بعض المسلمات مثل:-

- قضية التوحيد

– البعث

– التقوى

– خطر الموت وضرورة ذكره باستمرار

– خطر الدهر وتقلب الايام

وفي كل الاحوال , يحث الموصي جمهوره على الاستماع والتدبر والفهم والعمل وهو لا يخضع سوى لمنطقه الخاص في الكتابة , ولحريته في القول والتأليف على نحو يجعله مؤثراً وفاعلاً حريصا على تبيان امانته في النصح , وإخلاصه في مراعاة شؤون من يقدم اليهم الموعظة . وفي كلٍّ, ليس هم الموصي هماً ابداعياً محضاً لان همه الاستعداد للرحيل والتفكير في مصيره , والاعتناء بالولد وتبليغه خلاصة تجاربه وتأملاته في الحياة . فـ "الوصية – على تنوع

موضوعاتها واختلاف اطرافها – تصدر عن رجل على وشك الموت للأحياء . إذ هي به مقترنة وعليه تحيل , فالوصية تنشأ وتنجز لحظة الاحساس بقرب الأجل ودنو الموت" [19]

وقد تصدر وصايا ابداعية محضة عن بعض الشطاروالمكدين والمهمشين والعشاق في المجتمع , يراد بها معارضة السياق الاخلاقي العام . فهذا دويد بن زيد يوصي بنيه بوصية اختلفت عن السياق العام للوصايا إذ يقول : " اوصيكم بالناس شراً, لا ترحموا لهم عبرةً , ولا تُقبلوهم عثرةً , قصّروا الأعنة , وطولوا الأسنة , واطعنوا شزراً , واضربوا هبراً"[20]

ان تعمد الموصي مخالفة المتعارف من القيم والاخلاق ، يُعدمن الناحية الفنية تنويعا من تنويعات الوصية . الا ان الوصية لا تعدم عناصر جمالية تجعل المعرفة حية وممتدة كما تضمن للخطاب مستويات من المقبولية والاستجابة بل لعل من عوامل استمرار الوصية مادة تعبيرية رائجة تتوسل بالعناصر البيانية الجمالية والاقناعية ، اذ تتميز بخطين ؛ احدهما يحيل الى ذاته بوصفه صوغا جماليا يضيء السرد بشكله الفريد ؛ والآخر يحيل الى عالم القيم المتنوع عبر الاختلافات التي يختزنها والتناقضات التي يكشف عنها .

يتلازم هذا الخطاب في الوصية داخل الخطاب السردي المعرفي ، ويكشفان عن تعددية صوتية وفكرية تتناغم جميعها لتخدم الغرض البلاغي العام ، الذي لا يبخل بتوفير عناصر التشكيل , وبتفاصيل الصياغة الحسنة , الكفيلة باستنبات جمالية قابلة للوصف والتتبع , بمثل ما هي قادرة على التسلل الى روح القارئ , والاستحواذ على كيانه النفسي والعقلي . وهنا نذكر لنماذج من فن الوصية تجسدت فيها معاني الجمال والإقناع .

- اوصى زهير بن جناب الكلبي بنيه فقال :" إياكم والخور عند المصائب , والتواكل عند النوائب , فإن ذلك داعية للغم , وشماتة للعدو وسوء ظن بالرب , وإياكم ان تكونوا بالأحداث مغترين , ولها آمنين , ومنها ساخرين , فإنه ما سخر قوم قطّ إلا ابتلوا, ولكن توقعوها , فإنما الانسان في الدنيا غرض تعاورُه الرَّماة , فمقصّرٌ دونه , ومجاوز لموضعه , وواقع عن يمينه وشماله , ثم لابد أنه مصيبه"[21]

- اوصى النعمان بن ثواب بنيه قائلاً: " يابني إن كثرة الشراب , تفسد القلب , وتقلل الكسب , وتُجدّ اللعب , فأبصر نديمك , واحم حريمك وأعن غريمك , واعلم ان الظمأ القامح , خير من الزي الفاضح , وعليك بالقصد فإن فيه بلاغا"[22]

- اوصى قيس بن زهير بني نمر قائلاً : " إن لكم عليّ حقاً, وأنا اريد ان اوصيكم , فآمركم بخصال وأنهاكم عن خصال , عليكم بالأناة , فإن بها تُدرك الحاجة , وتُنال الفرصة , وتسويد من لاتُعابون بتسويده ,وعليكم بالوفاء , فإن به يعيش الناس , وبإعطاء من تريدون إعطاءه قبل المسألة , ومنع من تريدون منعه قبل الإلحاح , وإجارة الجار على الدهر , وتنفيس المنازل عن بيوت اليتامى , وخلط الضيف بالعيال ...."[23]

المحور الرابع

الموصي وسمة الاستضعاف

تُمثل الأنا مكوناً بلاغياً ينهض بوظيفة تأثيرية في النصوص , فالموصي يوزع عديداً من الملفوظات صراحة وضمنياً. كما يتبين في الأمثلة الآتية :

- "وإني موصيك بما ان حفظته بلغت في قومك ما بلغته , فاحفظ عني "[24]

- " يابنيّ إني قد بلغت من العمر مالم يبلغ أحد من آبائي واجدادي , فأحفظوا عني ما اوصيكم به...."[25]

- " يأيها الناس : قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني . لا تخونوا , ولا تغلوا ولا تغدروا ..."[26]

- إني قد وليتك لأبلوك وأُجّربك وأُخرجك,...."[27]

- يا هذا أحنين الحمامة؟ إذا أنامتُّ فشمّر واتزر , والبس جلد نمر"[28]

- " اوصيك ان تتخذ صغير المسلمين ولداً..."[29]

هذه الملفوظات تشكل مجتمعة صورة عن ذات الموصي , على نحو تغدو بموجبه هذه الذات المتلفظة عنصراً داعماً للخطاب , ومانحة اياه قدراً من المصداقية , بهدف ضمان التأثير وايجاد مسلك الى نفس وعقل الموصى .

إن ذات الموصي عندما تكون لها سيادة وهيبة يكون خطابها ذو سلطة على الموصى , ففي وصية عمر بن الخطاب لخالد بن الوليد التي يقول فيها " سر على بركة الله , فإذا دخلت أرض العدو, فكن بعيداً من الحملة فإني لا آمن عليك الجولة ,واستظهر بالزاد , وسر بالأدلاء , ولا تقاتل بمجروح , فإن بعضه ليس منه , واحترس من البيات , فإن في العرب عزة, وأقلل من الكلام , فإن مالك ما وُعى عنك , واقبل من الناس علانيتهم وكلهم الى الله في سريرتهم ...."[30]

- ونورد هنا جانباً من وصية ابي طالب لوجوه قريش عند موته , قائلاً " يامعشر قريش : اني اوصيكم بتعظيم هذه البنية – يعني الكعبة – فإن فيها مرضاة للرب , وقواما للمعاش , وثباتاً للوطأة , صلوا أرحامكم فإن في صلة الرحم منسأةً في الأجل , وزيادة في العدد, اتركوا البغي والعقوق اجيبوا الداعي , واعطوا السائل ,فإن فيها شرف الحياة والممات , وعليكم بصدق الحديث , واداء الأمانة , فإن فيها محبة في الخاص , ومكرمة في العام "[31]

فالذات تنهض بوظيفة بلاغية لا تنفصل عن مختلف العناصر النصية الأخرى , فتحضر بطابعها المؤثر والفاعل في المخاطب, عبر اسلوب تجميعي تُنتخب له في النص كل سمات الضعف والعبودية والتذلل والخضوع , وكل سمات الاعتراف والتسليم المطلقين للقوة الغيبية , إن الذات

تتشكل في صورة شاملة وكلية , تؤلفها سمات انسانية عميقة ومؤثرة يسند بعضها بعضاً, لتخلق نموذجاً إنسانياً متميزاً ومثيراً. كما ينبين في هذه الامثلة من الوصايا :

- " يابني إن أباك قد فني وهو حيّ, وعاش حتى سئم العيش "[32]

- " يابني: إن لأبيك صنائع فلا تفسدها , فإنه كفى بالمرء نقصاً أن يهدم مابنى أبوه"[33]

- " يا بُني, اني أرى داعي الموت لا يقلع , وأرى من مضى لا يرجع ومن بقى فإليه ينزع"[34]

- "يا بني: قد كبرت سني , وبلغت حرسا من دهري , فاحكمتني التجارب , والامور تجربة واختبار , فاحفظوا عني ما أقول وعوه....." [35]

إننا حيال نصوص كتّابها خبروا الحياة وادركوا اسرارها , وعرفوا خباياها قرأوا معالمها وحللوا الغازها , يقفون عند كل منعطف من منعطفاتها , يدرسون ظواهرها مثلما يدرسون بواطنها , ويستخلصون الدروس والعبر , ويصوغون الحكم والامثال , ويقدمون خلاصة التجارب الحقيقية التي عاشوها واكتووا بنارها , عساها تكون نبراساً هادياً , ونهجاً قويماً , يُبلّغ الموصى بّر الخلاص والنجاة .

تحتل لفظة (بني)[36] مساحة كبيرة من مجمل الوصايا , فهي تأتي في الاستهلال بكثرة.

وكذلك لفظة (بنية) اتت في استهلال بعض الوصايا.

- " اي بنّية : ان الوصية لو تركت لفضل ادب , تركت لذلك منك , ولكنها تذكرة للغافل , ومعونة للعاقل ..."[37]

- " يابُنّية ,إن الأمهات يؤدبن البنات , وإن امك هلكت وانت صغيرةٌ فعليك بأطيب الطيب الماء , واحسن الحُسن الكحل..."[38]

يستهل الموصي بلفظة مباشرة وحقيقية , لكنها ذات حمولة دلالية إنسانية لا تنضب يتولد من حولها كثير من المعاني والايحاءات , وقد اشار بيرلمان الى ان العبارات المباشرة والمقبولة تلقائياً وبدون جهد , يكفي في منحها كامل تأثيرها , توظيفها بطريقة ملائمة حتى تتمكن من بناء الفكر وتحريك النفوس بكيفية ناجعة[39]

إن لفظة (بني أو بُنّية) في مستهل الوصية تقنية جمالية تتنشط وتحرك المخيلة , وتوجه المخاطَب نحو اجواء الطاعة والامتثال , واستحضار طقوس الثقة والتصديق , واليقين المطلوب فيما يقوله الأب المعني بتوصيل الحقيقة وتربية الولد على قيم الصدق والصراحة وامتثال السلوك القويم.

ففي وصية الحرث بن كعب لبنيه التي يقو فيها :" يا بنيّ قد أتت عليّ مائة وستون سنة , ما صافحت يميني يمين غادر , ولا قنعت لنفسي بخُلّة فاجر , ولا صبوت بابنة عم ولا كنّة , ولا بُحت لصديق بسرّ, ولا طرحت عن مُومسة قناعا..."[40]

نرى ان الموصى يصبوا الى تجريد صورة انسانية عامة عن الوالد المثالي المطلق , الوالد الكامل الذي يذوب من أجل ابناءه ويستعذب في سبيلهم مُر الحياة وترسيخاً لمعاني التضحية والصبر في سبيل الأبناء . وقد يضع الموصي نفسه في حكم الغائب ؛" يا بني , خذوا عني , فلا أحد أصلح لكم مني , اذا دفنتموني فأنصرفوا الى رحالكم , فسَّودوا اكبركم , فإن القوم إذا سوّدوا اكبرهم خلفوا أباهم , وإذا سوّدوا اصغرهم , ازرى ذلك بهم في اكفائهم , وإياكم ومعصية الله , وقطيعة الرحم وتمسكوا بطاعة امرائكم ..."[41]

ابرز ما يهيمن على نص الوصية اعلاه هو التجسيد اللغوي لحقيقة استشعار الزوال والتيقن بحتمية الرحيل . فالوالد وان كان حاضراً جسماً في هذه الدنيا , فهو في حكم الغائب حقيقة وبصيرة , يعيش مع الاموات . بل ان منظوره الى المستقبل محكوم ايضاً بمحددات نفسية عميقة , تختزل لديه الزمن , فيغدوا على طوله , فترة قصيرة ويصير الزمن البعيد , زمناً قريباً لا يمتد لاكثر من لحظات تتحقق في لفظة (ادفنوني في ثيابي التي كنت أُصلي فيها واصوم)

وفي وصية اخرى , يقول الموصي لابنه وهو يبكي عليه عند رأسه , " إذا أنا متُّ فشمرَّ واتزر , والبس جلد نمر , وضع سيفك على عاتقك , تظهر لنا الكناية في (والبس جلد نمر) خوف الوالد على ولده من بعده فهو يوصيه بالتسلح ضد العداوة بالعداوة , وقد جاءت هذه الكناية مناسبة مع "الافق الانفعالي المتوخى"[42]

وهي مبررة بوعي الموصي الخبير في شؤون الحياة والدهر , الذي انقضى جل عمره ويرى السنين تمر مر السحاب وهو الذي يقول ذاما الدنيا "ان طويلك لقصير , وان كثيرك لقليل" , فهو يعاين انقاض الامم السالفة ويسكن بين اطلالهم وآثارهم , فالموصي مسكون بحقيقة ان الكل قد ارتحل ولبى داعي الموت, فكيف له وهو الساكن مساكنهم ان يطمع في بقاء أو يغفل عن هذه الحقيقة المريرة.

وقد تهيمن سمة بارزة على كل وصية ,عندما يعدل الموصي عن التعبير بصيغ الرفع او الفاعلية , الى اخرى يبدو معها مجروراً مكسوراً خاضعاً وتابعاً. وضع يعمّقهُ تراكم التجارب وعمق الاطلاع والتدبرفي الوجود " وبعد : فإني لما علاني المشيب بقمته , وقادني الكبر برُمتّه , وادكرت الشباب بعد أُمته , اسفت لما أضعت , وندمت بعد الفطام على ما رضعت , وتأكد وجوب نصحي لمن لزمني رغبه وتعلّق بعيني سعيُه , واملتُ أن تتعدى اليّ ثمرةُ استقامته وانا رهين فوات وفي برزخ اموات , ويأمن العثور في الطريق التي اقتضت عثاري, إن سلك على آثاري , فقلت أخاطب الثلاثة الولد , وثمرات الخلد بعد الضراعة الى الله تعالى في توفيقهم , وايضاح طريقهم , وجمع تفريقهم ....."[43]

ويترجم الاسلوب هذا الانكسار , من خلال التعبير عن الذات بصيغ الاسم المجرور أو المضاف أو المنصوب , وهذا يعد مساهمة فنية في خلق الشعور بالمأساة وتعميق نفس الاستضعاف والاستسلام , وتشكيل ملامح من البكائية الدفينة التي يتم تصريفها عبر تواتر صور جزئية متساندة , تساند تكويناً بالغ التأثير . وفي موضع آخر من الوصية تتعمق المأساة وتتعاظم :" اعلموا هداكم الله تعالى الذي بأنواره تهتدي الضلال, وبرضاه تُرفع الأغلال , وبالتماس قُربه يحصل الكمال , اذا ذهب المال , وأخلفت الآمال , وتبرأت من يمينها الشمال , اني مودّعكم وان سالمني الرّدى , ومفارقكم وان طال المدى , فكيف وأدوات السفر تُجمع , ومنادي الرحيل يُسمع , ولا أقل للحبيب المودّع , من وصية مُحتضر , وعجالة مقتصر"[44]

حينما يرى الموصي ان الآخرة مقبلة نحوه , ويرى كل كدحه ومثابرته واخلاصه للحياة الدنيا , لا يجاوز كونه مأخوذاً نحو سراب , يكتشف في نهاية المطاف عن حقيقة الموت والاستعداد للرحيل, وهنا تبدو مساهمة جمالية في تكثيف سمات الاستضعاف , ورسم معالم حساسية اللحظة , وتجلية ابعادها التأثيرية وامتداداتها الانسانية الخالدة .إذ تشير بعض الدراسات الفلسفية الى ان البكائية ومشاعر الأسى والحزن , سمات ملازمة للعظماء واصحاب الاهتمامات الكبرى , فالذات الانسانية , تصبح اكثر خوفاً ورعباً, ويزداد لديها القلق والاضطراب من المصير :" والكآبة شرط اساسي لظهور التفكير العميق , فالفيلسوف يتولد تفكيره غالبا عن شكه , وخصوصاً عن انقباضه واكتئابه , فيبتعد عن الملذات والاستمتاع بها , لينصرف الى البحث والاستنتاج بل ان هذه الحالة ضرورية ليستمر التفكير ويتسم بالعمق والاستقصاء"[45]

وقد يؤطر الموصي ملفوظاته بعلاقة الانتساب والقرابة , وبما قوامه حرارة عاطفة الابوة أو الامومة , وما تستجلبه من خوف وشفقة على الموصى:-

- " يا بنيّ اني قد بلغت من العمر مالم يبلغ أحد من آبائي واجدادي , ولابد من امر مقبل , فاحفظوا عني ما أوصيكم به ..."[46]

- " يا بني قد عرفتم خبرة الوالد بولده ....انصرف يا بني , فداك ابوك"[47]

- "يا بنيةَ ان الامهات يؤدبن البنات , وان امك هلكت وانت صغيرة..."[48]

- "اي بني , اني مؤد حق الله في تأديبك ,فأدّ اليّ حق الله في الاستماع مني ..."[49]

- "فاعملوا يا بنيّ بوصية من ناصح جاهد, ومشفق شفقة والد, واستشعروا حُبّه الذي توافرت دواعيه , وعوا مراشد هديه ..."[50]

إذ يجعل الموصي من عنصر القرابة آلية إقناعية عاطفية , يبدو الكلام مجللا بسمات القداسة الأبوية , فيحظى بالتصديق والثقة المطلقة من لدن الولد , الذي يُعدّ مجرد سامع مطيع , وهذه القداسة يتم تمريرها للمخاطب العام او الغير , فهي صادقة بداهة , وهي جديرة بالثقة , نظراً الى خصوصية العلاقة الواصلة بين طرفيها.

المحور الخامس
الموصي وسمة التخويف

تشكل صورة الموصى امتداد لصورة الموصي في النص , بل ان الوصية تنجز بوحي من رغبة الموصي في جعل الموصى صورة مثالية عنه , عبر تحصينه ضد ما يتهدده من مخاطر , وما يحيق به من مكر سيء , فهو يصور من منظر الخبرة العميق للموصي كنه الحياة وحقيقة فعلها في المرء. كما نرى في هذه الوصية التي يقول فيها الموصي :

" ايُّ بُنـيّ ,لا تزهدنّ في معروف ,فإن الدهر ذو صروف , والأيام ذات نوائب , على الشاهد والغائب , فكم من راغب أصبح مطلوباً مالديه , واعلم ان الزمان ذو ألوان , من يصحب الزمان ير الهوان , يا بني كن جواداً بالمال في موضع الحق , بخيلاً بالأسرار عن جميع الخلق , فإن أحمد جود المرء الإنفاق في وجه البّر , وان احمد بُخل الحُرّ الضّنُّ بمكتوم السر, واذا احببت فلا تفرط , واذا ابغضت فلا تشطط..."[51] وفي وصية اخرى " اي بنـيّ وكأني بشبابكم قد شاخ , وبراحلكم قد اناخ , وبنشاطكم قد كسل واستبدل الصّاب من العسل , ونصول الشيب تروّع بأسل , لا بل السَّامُ من كل حدب قد نسل , والمعادُ اللّحدُ لا تسل فبالأمس كنتم فراخ حجر , واليوم ابناء عسكر مجر , وغداً شيوخ مضيعة وهجر , والقبور فاغرة , والنفوس عن المألوف صاغرة , والدنيا بأهلها ساخرة , والأولى تعقبها الآخرة , والحازم من لم يتعظ به من امر ..."[52]

في هذه الملفوظات يتم حصر الموصى بين لحظتي الولادة والموت , حدين متقابلين ومتلاحقين ضدياً (الطفولة X الشيخوخة) تجسيداً فنياً لسلطة الحياة ووقوعه ضمن مديونية قوانينها ,إنه الكائن المستضعف , والمولود الصغير , ولأن الصغر حالة ملازمة للإنسان , ومهما توهم في نفسه القوة والقدرة والكبر , فهو يظل في حكم الصغير والضعيف " يا بني اني عليك حدب مشفق , لصغر سنك ونفاسة اخوتك على مكانك مني ,وإني لا آمن بغته الأجل , ولي كنز ادّخرته لك دون اخوتك وهأنا مطلعك عليه ..."[53] وفي وصية المهلب بن ابي صفرة لابنائه عند موته يقول" فاني احب للرجل ان يكون لعمله فضلٌ على لسانه , واتقوا الجواب , وزله اللسان , فإن الرجل تزل قدمه فينتعش من زلته , ويزل لسانه فيهلك , اعرفوا لمن يغشكم حقه , فكفى بغدوّ الرجل ورواحه اليكم تذكرة له , وأثروا الجود على البخل , واحبوا العرب واصطنعوا العرب , فإن الرجل من العرب تَعدهُ العدة فيموت دونك؟ وعليكم في الحرب بالأنات والمكيدة ,فإنها انفع في الحرب من الشجاعة وإذا كان اللقاء نزل القضاء , فإن أخذ رجل بالحزم فظهر على عدوه ..."[54]

ان التعبير عن الموصى بصيغة الغائب , إشعار بكونه في عداد الموتى والمفقودين وان بدا حر طليقا , او عاش لاهيا سعيدا , وفي الوصية يوظف الموصي معجم يوجب الانتباه والحذر لغايات تأثيرية ينبه بها الى ضرورة ان يأخذوا الكلام على محمل الجد.

ولا تخفى اهمية ادوات البلاغة الموظفة في بعض الوصايا, ودورها في إحداث التأثير فهذه وصية الطاهر بن الحسين لابنه عبد الله لمّا ولاّه المأمون الرقة ومصر وما بينهما سنة 206 هـ , فالموصى وحيد في مقابل التعدد وهو مفرد :" يا بنيّ استعمل الحزم في كل ما اردت , وباشره بعد

عون الله بالقوة واكثر استخارت ربك في جميع امورك , وافرغ من عمل يومك ولا تؤخره لغدك , واكثر مباشرته بنفسك , فإن لغد أموراً وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذي أخرت , واعلم ان اليوم اذا مضى ذهب بما فيه ,فإذا أخرت عمله اجتمع عليك امر يومين , فشغلك ذلك حتى تعرض عنه ,فإذا امضيت لكل يوم عمله ارحت نفسك وبدنك وأحكمت امور سلطانك "[55] في مقابل مسؤوليات عليه القيام بها وقد جاءت بصيغ الجمع " وانظر احرار الناس وذوي الشرف منهم , ثم استيقن صفاء طويتهم , وتهذيب مودتهم لك , ومظاهرتهم بالنصح والمخالصة على امرك , فاستخلصهم واحسن اليهم وتعاهد اهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة , فاحتمل مئونتهم , واصلح حالهم ,حتى لا يجدوا لخلّتهم مسًّا ,وأفرد نفسك بالنظر في امور الفقراء والمساكين , من لا يقدر على رفع مظلمته إليك , والمحتقر الذي لا علم له بطلب حقه ,فاسأل عنه أحفى مسأله , ووكل بأمثاله أهل الصلاح من رعيتك ومرهم برفع حوائجهم وحالاتهم إليك , لتنظر فيها بما يُصلح الله به أمرهم , وتعاهد ذوي البأساء ويتاماهم وارامله , واجعل لهم ارزاقاً من بيت المال , اقتداء بأمير المؤمنين في العطف عليهم والصلة لهم , ليُصلح الله بذلك عيشهم , ويرزقك به بركة وزيادة وأجر للأضراء من بيت المال , وقدم حمله القرآن منهم والحافظين لأكثره في .... على غيرهم , وانصب لمرضى المسلمين دوراً تؤويهم , واقواما يرفقون بهم , واطباء يعالجون اسقامهم , واسعفهم بشهواتهم , مالم يؤد ذلك الى سرف في بيت المال...."[56]

كل ذلك يسهم في تجسيد الضعف البشري , ويشعر الذات بالخطر الوجودي , فيحصل الاقناع التام باستحالة النجاة أو الانتصار , كما ان هذه الملفوظات معروفة عند الموصى فهو يعلم جيداً مدلولات الفقر والحاجة ونتائجها في المجتمع .ولا يفتأ الموصي يُظهر الزمن في صورة القوة القاهرة المخيفة , التي لا يمكن ان يؤمن بطشها أو يُسلم من سطوتها, حقيقة ينبغي ان لا يعشو عنها المولود , بما يبدوا نهجاً بلاغيا يروم تخضيع الذات والدفع بها نحو الاعتبار وتحري مزيد من التعمق لإدراك حقيقة الاشياء , واكتساب يقين المعرفة وتحصيل معدن الحكمة من الوجود :" واعتبر بما ترى من امور الدنيا ومن مضى من قبلك من اهل السلطان والرياسة في القرون الخالية والامم البائدة , ثم اعتصم في احوالك كلها بأمر الله , والوقوف عند محبته , والعمل بشريعته وسننه , وإقامة دينه وكتابه , واجتنب ما فارق ذلك وخالفه ودعا الى سخط الله , واعرف ما تجمع عما لك من الاموال , وما ينفقون منها ولا تجمع حراما ولا تنفق اسرافاً واكثر مجالسة العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم ..."[57]

فالزمن قوة قاهرة ومخيفة , يستوجب النظر العميق والتأمل الدقيق , ويستوجب الاعتبار بما فعله في الامم السابقة , فقد حكم على الجميع بالفناء والزوال واذاق الكل فجائعه . هذا الخطر الحقيقي يختار له الموصي طريقاً للمواجهة هو اصلاح شأن القلب وتذكيره بتقوى الله التي تحقق للمولود النجاة.

وقد يحيد الموصي عن سياق الخير الى سياق قد نستغربه من والد يوصي ولده بالسوء , ففي وصية ذويد بن زيد لما حضرته المنية يقول مخاطبا بنيه :" أوصيكم بالناس شراً, لا ترحموا لهم عبرة , ولا تقبلوهم عثرة , قصروا الاعنة , وطولوا الأسنة , واطعنوا شزراً واضربوا هبراً , واذا

اردتم المحاجزة فقبل المناجزة , والمرء يعجز لا المحالة , بالجد لا بالكد , التجلد ولا التبلد , والمنية ولا الدنية , ولا تأسوا على فائت وان عز فقده , ولا تحنوا الى ظاعن وان الف قربه , ولا تطعموا فتطبعوا , ولا تهنوا فتخلعوا ..."[58]

في مقابل هذه الوصية نجد اخرى على النقيض منها , فالموصي يعمد الى تنبيه اولاده بقوله :" يا بني لا تحقرن ذنباً ولا تمالئن حاسدا , ولا ترحمن فاجراً, ولا تصلن كفوراً, ولا تداهن عدواً , ولا تصدقن نماما , ولا تأمنن غداراً , ولا توالين فاسقاً , ولا تتبعن غاوياً , ولا تحمدن مرائيا , ولا تحقرن انساناً ولا تردن سائلا فقيراً , ولا تخلفن وعداً , ولا تزهون فخرا ولا تظهرن غضباً, ولا تمشين مرحاً واكثر مشاورة الناس الذين ترى فيهم حكمة وخذ عن اهل التجارب وذوي العقل والرأي..."[59]

ولإن الموصي يدرك ان ولده لا يمكنه ان يعيش بمعزل عن الناس وان وجوده محكوم بمعاشرتهم ومعايشتهم , لزم ان يطلعه على حقائقهم المخيفة هي الاخرى , وحقيقة العلاقات الاجتماعية المرعبة التي تربط فيما بينهم وان يعرف طباع الناس في مواجهة المغريات والملذات التي لا يسلم من الانغماس في بحرها الا القليل. وبذلك يعمد الموصي الى التنويع في الحجج ليضمن الفائدة .

المحور السادس

الوصية والتنويع في الحجج

ترتكز بلاغة الوصية على دعامة الذات الموصية , بما هي مكون نصي يتشكل عبر سمات جمالية دقيقة ومتخيرة , لا تنفصل عن الاستراتيجية العامة للوصية , ثم دعامة الموصى بوصفه عنصرا نصيا تؤلفه سمات نصية تنهض من جانبها بوظائف جمالية غير منفصله عن غايات الوصية , وهما دعامتان لا يمكن فصلهما عن عنصر ثالث قوامه الحجج البلاغية والاسلوبية .

وعليه يعتمد الموصي خططا واستراتيجيات مدبرة , ويعمد الى اساليب خاصة تكون كفيلة بتحقيق ما ينشده , لذا فهو يسخر كل العناصر الحجاجية الممكنة , والكفيلة بتحقيق ما يرام من التأثير والاقناع . هذه العناصر تظل في مجملها مؤطرة ضمن استراتيجية "الحجة والنتيجة , او الفعل المطلوب إنجازه والحجة الباعثة عليه والمبررة له "[60]. رغبة في التواصل الى إذعان المخاطب الخاص والعام معا . وهي استراتيجية تسندها انواع من الحجج البلاغية والاسلوبية.

أ- سلطة التجربة:-

تمثل النصائح التي يوجهها للموصي خلاصة عمر مديد من التجارب والمعايشة الحقيقية للقضايا والاحداث , وناتجة عن طول تأمل وتدبر الامور . فتكون توجيهاته حائزة قيمتها من جانب ما لصاحبها من تجربة في الحياة . وهنا نطالع وصايا الخلفاء والامراء والولاة الذين لم يبخلوا على رعيتهم بخبرتهم ومعرفتهم بشؤون الحياة , فتراهم ينصحونهم ويعظونهم في شؤون الحياة

كلها . ومنها وصية ابي بكر ليزيد بن ابي سفيان حين وجهه لفتح الشام ,إذ يقول :" يا زيد اني أوصيك بتقوى الله وطاعته والإيثار له , والخوف منه , فقد وليتك عمل خالد , فإياك وعيبة الجاهلية , فإن الله يبغضها ويبغض أهلها , وإذا قدمت على جندك فاحسن صحبتهم وابدأهم بالخير , وعدهم إياه , وإذا وعظتهم فأوجز , واصلح نفسك يصلح لك الناس , وصلّ الصلوات لأوقاتها بإتمام ركوعها وسجودها والتخشع فيها , وإذا قدم عليك رُسل عدوك فاكرمهم واقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به ولا تريثهم فيروا خللك ويعلموا علمك ' وانزلهم في ثروة عسكرك, ومنع من قبلك من محادثتهم , وكن انت المتولي لكلامهم , ولا تجعل سرك لعلانيتك , فيختلط أمرك , واذا استشرت فاصدق الحديث تصدق المشورة , ولا تخزن عن المستشير خبرك ...واكثر حرسك وبددهم في عسكرك واكثر مفاجئتهم في محارستهم بغير علم منهم بك , فمن وجدتهُ غفل عن محرسه , فأحسن أدبه وعاقبه من غير افراط وعقب بينهم بالليل , واجعل النوبة الاولى اطول من الاخيرة , فإنها أيسرها لقربها من النهار, ولا تغفل عن اهل عسكرك فتفقده ولا تتجسس عليهم فتفضحهم ولا يكشف الناس عن اسرارهم واكتف بعلانيتهم ..." [61]

ووصية اخرى لعمر بن الخطاب كتبها لسعد بن ابي وقاص ومن معه من الاجناد , التي يقول فيها :" اما بعد : فإني آمرك ومن معك من الاجناد بتقوى الله على كل حال , وليكن عندك من العرب ,أو من أهل الارض من تطمئن الى نصحه وصدقه ,فإن الكذوب لا ينفعك خبره , وان صدقك في بعضه , والغاش عين عليك , وليس عين لك, وليكن منك عند دنوك من ارض العدو ان تكثر الطلائع , وتثبت السرايا , بينك وبينهم , فتقطع السرايا امدادهم ومرافقتهم, وتتبع الطلائع عوارتهم وتخير لهم سوابق الخيل ,فإن لقوا عدواً كان اول ما تلقاهم القوة من رأيك , واجعل امر السرايا الى اهل الجهاد , , والصبر على الجلاد, وتيقظ من البيات جهدك , ولا تؤتى بأسير ليس له عقد إلا ضربت عنقه , لترهب به عدو الله وعدوك ..."[62]

فأمور التجربة والمعايشة للأمور العسكرية نضيف اليها السبق العمري توظف بصفتها حجة مقنعة وداعمة لوجهة نظر الموصى , تضفي على القول قيمة تجعله محط ثقة زائدة . لأنه وليد طول تأمل وتفكر وناتج عن تتبع دقيق لأخبار السابقين , وعن تميز واع بين الضار والنافع . وهذه التجربة المعروضة على الموصى تغنيه عن كل مغامرة غير معلومة النتائج لأن في " في طول التجارب زيادة في العقل , والقناعة راحة الابدان والبلاغة معرفة رتق الكلام وفتقة بالعقل تستخرج الحكمة , وبالحلم يستخرج غور العقل , ومن شمر في الامور , ركب البحور , ومن اطال النظر بإرادة تامة أدرك الغاية "[63] .وتحوز هذه الحجة قيمتها الاقناعية من جانب إشعار الموصى بالأتعاب والمشقات التي خاضها اهل التجارب كي يحصلوا ما حصلوا عليه فهم قد تعبوا وكدوا حتى استطاعوا ان يحصلوا على النتيجة التي وصلوا اليها , فحقيق بالموصى ان يأخذها ويعتبرها .

ب ـ حجة الشاهد :-

يغني الموصي كلامه بعديد من الشواهد الداعمة لخطابه , والمساهمة في استماله الموصى نحو ما يلقى اليه . فتكون " بمثابة الضامن للفعل المبتغى .. شأنها شأن حجة السلطة "[64] . ويتم التركيز اكثر على الشاهدين القرآني والتاريخي ومن استخدامات الشاهد القرآني في وصية لسان الدين الخطيب لأولاده التي يوظف فيها وصية لقمان لا بنه التي جاء ذكرها في القرآن الكريم والتي يورد فيها نص الاية :" وسأعيد عليكم وصية لقمان , اعوذ بالله من الشيطان الرجيم :" وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه : يا بني لا تشرك بالله , ان الشرك لظلم عظيم , يا بني اقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما اصابك إن ذلك من عزم الامور , ولا تصغر خدك للناس ولا تمش في الارض مرحا , إن الله لا يحب كل مختال فخور , واقصد في مشيك , واغضض من صوتك , ان انكر الاصوات لصوت الحمير" واعيد وصية خليل الله واسرائيله , حكم ما تضمنه حكم تنزيله :" يابني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وانتم مسلمون " والدين الذي ارتضاه واصطفاه واكمله ووفاه , وقرره مصطفاه , من قيل ان يتوفاه , فهو عمل واعتقاد وكلاهما مقرر..."[65]

فللإقناع بحقيقة التوحيد يلفت الموصي نظر الولد الى تاريخ الانبياء والرسل فهم على كثرتهم اتفقوا جميعا على الإله الواحد , ولم يثبت ان أحداً أخبر أو ادعى انه من عند غير الله . فيلزم تبعاً لذلك ان لا يشذ الولد عن الإقرار بهذه الحقيقة المتفق عليها . وقد احتوت وصايا كثيرة على نصوص قرآنية يوظفها الموصي في كل ما يخص التوحيد والمعاملات التجارية واليومية وهذه النصوص بدورها تعد حجج تحوز قوتها الاقناعية من دعامة الغيب وطاقتها الابلاغية الدافعة نحو تغيير الافكار والقناعات , في اتجاه تصدير السلوك ونقله الى الموصى (افعل الشيء ذاته).

وقد يركز الموصي على الشاهد التاريخي ,إذ يلتفت الموصي الى الأمم السابقة " يا بني, إني قد أنبأتك عن الدنيا وحالها وزوالها وانتقالها" [66]

ويرصد مصائرها المفجعة بما هي حقائق واقعة ومرصودة ومتفق على صدقيتها فهي دليل مقنع وحجة قاطعة اي شك بشأن خطورة الموت, وحقيقة الدنيا المحكومة بالزوال والفناء, كما يحضر الشاهد عنصرا محفزا على ضرورة الاختيار الحسن وابتغاء الصلاح وانتهاج التفكر والتبصر سبيلا في الحياة.

"وعرض عليه اخبار الماضين وذكره بما اصاب من كان قبلك من الاولين, وسر في ديارهم وآثارهم , فأنظر فيما فعلوا , وعما انتقلوا واين حلوا ونزلوا ,فإنك تجدهم قد انتقلوا عن الاحبة , وحلوا دار الغربة , وكأنك عن قليل قد صرت كأحدهم "[67]. فعرض المصير الذي آل اليه السابقون يعد قوة حجاجية يسهل ان يقبلها الموصى , لانها من الاحداث الماضية الناجزة التي لا يمكن نكرانها او التغافل عنه . ان انتقال الاقوام السابقين وفنائهم , احداث واقعة ومشهودة بصحتها , لا يمكن ان يرقى اليها الشك او الرفض او الاعتراض , وهي بذلك حقيقة مقنعة وحجة دامغة ,

تستدعي الاتعاظ والاعتبار من لدن الموصى , وتستلزم ان يغير من سلوكه وافعاله , لانه محكوم حتما بما سبق اليه غيره.

ج – حجاجية الايقاع :-

رغم ان الوصية تنهج في مجملها استراتيجية الكتابة الحرة التي لا تلتزم بقيود تأليفية صارمة , إلا انها لا تعرى في مواطن كثيرة من ملامح ايقاعية تسهم من جانبها في خلق التأثير الجميل وتحقيق الاقناع . فالسجع في الوصية مثلا , لا يقف عند حدود التأنق في العبارة أو التزام القيود الصوتية , بل يؤدي وظيفة حجاجية ,إذ يعضد المعنى , ويرسخ الدلالة في نفسية وفي عقل الموصى , وهنا سنورد نماذج نلاحظ فيها نغمية السجع:-

- " لم يهلك هالك , ترك مثل مالك , وان كان الخزرج ذا عدد , وليس لمالك ولد , فلعل الذي استخرج الحذق من الجريمة , والنار من الوشيمة, ان يجعل لمالك نسلا , ورجلا بسلا, يا مالك , المنية ولا الدنية , والعتاب قبل العقاب , والتجلد لا التبلد , واعلم ان القبر خير من الفقر , وشر شارب المشتف , واقبح طاعم المقتف , وذهاب البصر خير من كثير من النظر , ومن كرم الكريم , الدفاع عن الحريم , ومن قل ذل , ومن امر فل..."[68]

- ونص ثان " يا بني اني موصيك بما ان حفظته بلغت في قومك ما بلغته , فاحفظ عني . الن جانبك لقومك يحبوك , وتواضع لهم يرفعوك , وابسط لهم وجهك يطيعوك , ولا تستأثر عليهم بشيء يسودوك , واكرم صغارهم كما تكرم كبارهم , يكرمك كبارهم , ويكبر على مودتك صغارهم , واسمح بمالك واحم حريمك , واعزز جارك..."[69]

- ونص اخر " يا بني ان الصارم ينبو , والجواد يكبو , والاثر يعفو ,فإذا شهدت حربا , فرأيت نارها تستعر , وبطلها يخطر , وبحرها يسجر , وضعيفها ينصر , وجبانها يجسر , فاقلل المكث والانتظار , فان الفرار غير عار , اذا لم تكن طالب ثار , فانما ينصرون هم , واياك ان تكون صيد رماحها , ونطح نطاحها"[70]

ان تواتر الجمل في النصوص اعلاه يأتي لتوصيل حقائق من الجهة الموصية وإشعاراً بجسامة هذه المسؤولية التربوية الخلقية التي جسدتها المساهمة الصوتية للسجع إذ يبقى لهذه الجمل القصيرة رنة صوتية تحببها الاسماع وتلتقطها الانفاس , وترد على العقول بسهوله وخفة.

وقريب منه ظاهرة التوازي الصوتي القائم على التقابل بين متواليين صوتيين تقابلا في التوازن والتركيب النحوي من قبيل " يا بني تميم لا يفوتكم وعظي إن فاتكم الدهر بنفسي , ان بين حيزومي وصدري كلاماً لا اجد له مواقع إلا اسماعكم , ولا مقار إلا قلوبكم , فتلقوه بأسماع مصفية وقلوب واعية , تحمدوا معنيه , الهوى يقظان , والعقل راقد , والشهوات مطلقة , والحزم معقول , والنفس مهملة, والرؤية مقيدة .."[71]. ومثله التقابل الغير التام , عبر الاختلاف في بعض الاصوات ," يا بني اياكم ومخالطة السفهاء ,فإن مجالستهم داء , وان من يحام عن السفيه يسر

بحلمه ومن ... يندم , ومن لا يقر بقليل ما يأتيه السفيه , يقر بالكثير ..."[72] واحيانا عبر التقابل القائم على مراعاة الاتحاد في الكلمتين الاخيرتين فقط ؛ "ولا تكن خازناً لغيرك ,وكن اخشع ما تكون لربك , شكوت له همومك , واستكشفته كروبك "[73] وهي جميعها عناصر صوتية لها دورها في تثبيت الدلالة وتحقيق الاقناع .

وثمة احتفاء لافت بالتجانسات الصوتية , خاصة الجناس غير التام , عبر المجاورة بين ملفوظات متجانسة جزئياً ؛ " اي بني , وان غلبت يوما على المال , فلا تدع الحيلة على الحال , فان الكريم يحتال , والدني عيال , وكن احسن ما تكون في الظاهر حالا, أقل ما تكون في الباطن مالا , فإن الكريم من كرمت طبيعته , وظهرت عند الانفاذ نعمته " [74] , لها دورها ي خلق ايقاع جزئي , ينجح في ابقاء المتلقي متحركا ضمن فضاء صوتي تعالق ملفوظاته بما يجر السامع نحو الشبكة الدلالية للنص .

ويؤدي الطباق الوظيفة عينها , فيوظف بشكل لافت في عموم الوصية , من خلال المواجهة بين ملفوظات متضادة دلاليا , في صورة طباق السلب؛ " يا بني اذا حدثتم فعوا , واذا حدثتم فاوجزوا , فان مع الاكثار يكون الاهذار , وموت عاجل خير من ضنى اجل , وما بكيت من زمان الا دهاني بعده زمان , وربما شجاني من لم يكن أمره عناني , وما عجبت من احدوثة الا رأيت بعدها اعجوبة , واعلموا ان اشجع القوم العطوف, وخير الموت تحت ظلال السيوف , ولا خير فيمن لا روية له عند الغضب , ولا فيمن إذا عوتب لم يعتب , ومن الناس من لا يرجى خيره ولا يخاف شره , فبكؤه خير من دره وعقوقه خير من بره..."[75]

هذا التواتر بين ملفوظات بعينها , تضاف اليه المقابلة بين المعنيين " فاذا حفظت وصيتي فلا يكن غائب احب اليك وهو اتيك , وان ضيعت وصيتي فلا يكن غائب ابغض اليك من الموت ولست بمعجز الله"[76] , وفي نص اخر " فليس بكل طالب بمرزوق ولا كل بمجمل بمحروم وقارن اهل الخير تكن منهم وباين اهل الشر تبن عنهم .."[77] . كلها امور تبدوا مجتمعة مساهمة جمالية تقود نحو تحقيق التأثير وشد انتباه المخاطب الى محطات بعينها تلزمه البقاء منها على ذكر , وتجعله يستشعر حاله من التناقض يلزم التدبر فيه , ففي الحياة موت خفي , وفي الصحة والسلامة تهديد وعلل مرتقبة , وفي زخرف الدنيا ونعمها هول وخطر .

الخاتمة

لم تكن غايتنا من المقاربة معاينة كل الامكانات البلاغية التي تتيحها الوصية , بقدر ما كنا نروم قياس تجليات البلاغة النوعية لهذا الجنس القولي , الذي افترضنا فيه تلازم المكونيين الحجاجي والادبي , واللذين يقصد منهما الامتاع والاقناع معا.

ولقد اثبت التحليل امكانية الحديث عن بلاغة نوعية للوصية تتأسس على ثلاث ركائز يسند بعضها بعضا.

1- بدت الذات الموصية عنصرا نصيا يتشكل عبر سمات , تنتقى بعناية دقيقة , وتكون عنه صورة متعددة الملامح , قوامها الضعف والاستسلام والخضوع لقاهرية الدهر , فكانت مكونا جماليا له ديناميكية وفاعليته النصيتان , مثلما بدت عنصرا داعما للخطاب ومساهمة في الاقناع .

2- تبين ان الموصى مكون اساس في بلاغة النص , ويشكل امتداد للذات الموصية , عبر انتخاب جملة من السمات التي تصب جميعها في خانه التخويف , وتنجح في تشكيل صورة عن طرف مهدد ومحاط بمخاطر حقيقية , تستوجب التدخل العاجل قصد التدارك والتخلص . وهذا يسهم من جانبه في سوق الخطاب نحو وجهات تعبيرية دلالية يكون محورها , بل هو منطلقها ومنتهاها.

3- لم يكن نص الوصية ليعرى عن توظيفه حجج مباشرة , ومقومات لغوية اسلوبية وايقاعية عديدة , دلت من جهة , على كون خطاب الوصية يخلق ضمن دائرة الكتابة الباذخة التي تعنى بشروط التحسين . ودلت من جهة اخرى على ارتقائها الى مستوى التوظيف المقنع والمؤثر.

الهوامش

[1] - معجم مقاييس اللغة – ابن فارس , تحقيق : عبد السلام هارون ,ج6, دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .(مادة وصى)

[2] - تاج اللغة وصحاح العربية , الفارابي , دار احياء التراث العربي , بيروت ,ط1 , 1999 (مادة وصى)

[3] - سنن الترمذي : 3 / 467

[4] - سورة النساء : آية 11

[5] - سورة الانعام : آية 152

[6] - ديوان عنترة :دار صادر , بيروت , لبنان ,1992.ص29

[7] - المخصص: ابن سيدة :25/2

[8] - في القرآن الكريم والاحاديث النبوية , وصايا مختلفة باختلاف الجهة الموصية , وباختلاف الموضوعات والاغراض منها , وقد شكل النص الديني محفزاً لإنتاج الوصية والاهتمام بها , فجاءت آيات بصيغة الوصية , واخرى حثت على انجاز الوصية وإنتاجها , وفي اخرى حث على العمل بها وتطبيقها . منها ما يتعلق بالإرث والوصية للازدواج والوصية بالشرع والدين والتقوى والوصية بالوالدين والوصية بالفرائض وللتوسع ينظر: وصايا رسول الله وتوجيهاته – خير الدين وائلي , الشركة الجزائرية اللبنانية , الجزائر , ط1 , 2007 .8-11

[9] - تتنوع الوصايا بحسب طبيعة الجهة الموصية , قد تكون صادرة عن جهة غيبية (وصايا القرآن والكتب المقدسة) وقد تصدر عن جهة بشرية حاملة لسمات التأييد الغيبي مما يجعلها فوق بشرية كوصايا الرسل والانبياء , ووصايا ذات سمة ادبية خطابية عضة , كوصايا الادباء والسياسيين والخطباء والحكماء , ثم

الوصايا الشعبية من الآباء والامهات للأبناء وغيرهم , وهذا التنوع من شأنه ان يغني المقاربة التحليلية البلاغية للوصية ويمنحها الكثير من الحيوية الدلالية والتداولية.

[10] - الوصايا الادبية الى القرن الرابع الهجري - مقاربة اسلوبية ..... : 63

[11] - ينظر: شرح ابن ابي الحديد :155/4

[12] - ينظر: المصدر نفسه : 154/4

[13] - تاريخ الطبري :213/3

[14] - ينظر : البيان والتبيين :22/2

[15] - ينظر : الامالي :312/2

[16] - ينظر : المصدر نفسه :204/2

[17] - ينظر : المصدر نفسه : 81/2

[18] - اسرار البلاغة :ص9

[19] - الوصايا الادبية :ص54

[20] - امالي السيد المرتضى : 171/1.

[21] - امالي السيد المرتضى: 173/1.

[22] -مجمع الامثال : 48/1

[23] - امالي السيد المرتضى :149/1

[24] - الاغاني : 6/3

[25] - شرح بن ابي الحديد :155/4.

[26] - تاريخ الطبري :213/3

[27] - تاريخ الكامل لابن الاثير :196/2.

[28] - مروج الذهب :154/2.

[29] - الامالي : 312/2.

[30] - العقد الفريد : 40/1

[31] - بلوغ الأرب في معرفة احوال العرب :327/1.

[32] - الاغاني :6/3

[33] - شرح بن ابي الحديد : 155/4

[34] - الامالي :204/2

[35] - امالي السيد المرتضى: 173/1

[36] - ينظر : امالي السيد المرتضى :173/1, مجمع الامثال:48/1, البيان والتبيين:88/180,2/1, العقد الفريد:14/1,الامالي:260.204/2, شرح بن ابي الحديد:155/4, 154/4, الامالي 60/2, الاغاني :6/3.

[37] - العقد الفريد :3:223

[38] - الاغاني :128/18

[39] - ينظر : التمثيل والاستعارة في العلم والشعر والفلسفة :127.

[40] - شرح بن ابي الحديد :154/4.

[41] - شرح بن ابي الحديد :155/4

[42] - التمثيل والاستعارة : 126

[43] - نفح الطيب :4/ 419

[44] - نفح الطيب : 419/4

[45] - دراسات في تاريخ الفلسفة العربية وآثار رجالها ,عبده الشامي , دار صادر, بيروت, ط5, 1979:ص95

[46] - شرح بن ابي الحديد :155/4

[47] - شرح بن ابي الحديد :167/4

[48] - الاغاني :128/18

[49] - زهر الآداب وثمر الالباب :92/1.

[50] - نفح الطيب : 419/4

[51] - الامالي :204/2

[52] -

[53] - العقد الفريد :41/1

[54] - تاريخ الطبري :19/8

[55] - تاريخ الطبري :258/1.

[56] -تاريخ الطبري :258/1.

[57] - تاريخ الطبري :259/1.

[58] - امالي السيد المرتضى :171/1.

[59] - شرح بن ابي الحديد: 259/2

[60] - الوصايا الادبية :23

[61] - تاريخ الكامل لابن الاثير :196/2

[62] - العقد الفريد :40/1.

[63] - البيان والتبيين :232/3

[64] - التمثيل والاستعارة :123.

[65] - نفح الطيب :419/4

[66] -نهج البلاغة :ص399.

[67] - نهج البلاغة:395.

[68] - الامالي :102/1.

[69] - الاغاني :6/3.

[70] - مجمع الامثال:48/1

[71] - شرح بن ابي الحديد :155/4

[72] - الامالي :60/2

[73] - نهج البلاغة

[74] - الامالي :204/2.

[75] - شرح بن ابي الحديد:155/4, ينظر: الامالي :312/2.

[76] - العقد الفريد :298/1.

[77] - نهج البلاغة :400.

المصادر والمراجع

ـ اسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق : محمود احمد شاكر ، دار المدني ، جدة ، 1991

ـ الامالي ، ابو علي القالي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان

ـ امالي المرتضى ، الشريف المرتضى ، تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم ، عيسى البابي الحلبي ، 1954

ـ الاغاني ، ابو الفرج الاصفهاني ، مؤسسة جمال للطباعة والنشر ، بيروت ، 1963

ـ بلوغ الارب في معرفة احوال العرب ، الالوسي ، تحقيق : محمد بهجة الاثري ، دار الكتاب المصري

ـ البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق : عبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، ط1، 1997

ـ تاريخ الرسل والملوك ، الطبري ، تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم ، ط2 ، دار المعارف ، 1967

ـ التمثيل والاستعارة في العلم والشعر والفلسفة ، ش بيرلمان ، ترجمة : حمو النقاري ، مجلة المناظرة ، س1 ، ع1 ، 1989

ـ دراسات في تاريخ الفلسفة العربية واثار رجالها ، عبده الشامي ، دار صادر ، 1968

ـ زهر الاداب وثمر الالباب ، ابو اسحاق الحصري ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، ط4، 1900

ـ شرح نهج البلاغة ، لابن ابي الحديد ، تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار الكتاب العربي ، ط1، 2007

ـ العقد الفريد ، لابن عبد ربه ، تحقيق : مفيد محمد قميحة ، دار الكتب العلمية ، ط1، 1983

ـ الكامل في التاريخ ، لابن الاثير الجزري ، تحقيق : ابو الفداء عبد الله القاضي ، دار الكتب العلمية ، ط1، 1987

ـ مجمع الامثال ، الميداني ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، المعاونية الثقافية للاستانة الرضوية ، ايران ، 1987
ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر ، المسعودي ، راجعه : كمال حسن مرعي ، المكتبة العصرية ، ط 1، بيروت ، لبنان ، 2005
ـ الوصايا الادبية الى القرن الرابع الهجري ـ مقاربة اسلوبية حجاجيه ، عبد الله البهلول ، مؤسسة الانتشار العربي ، ط1 ، 2011
ـ نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، التلمساني ، تحقيق : احسان عباس ، دار صادر ، 1968
ـ نهج البلاغة وهو ما مجموع ما اختاره الشريف الرضي من كلام امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام ، ضبطه وشرحه : محمد عبده ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان

Abstract

The purpose of this study is to examine the eloquence of the commandment as one of the expressive genres with an obvious presence in the Arab-Islamic heritage, which is a flexible and correct discourse. It is not a spontaneous, utilitarian speech, nor is it born of a psychological moment in which the self senses its weakness and proximity to its faculties. Rather, it is a rhetorical discourse subject to an authoritarian strategy that seeks to change and find the better person in a reality that is better than separating it from its persuasive Hajj goals.

What we aim at in this research is to measure the manifestation of the rhetoric of this gender, which is explained to us in three pillars that support each other. It was divided into six axes:

♦ The first axis: the meaning of the commandment
♦ The second axis: the will: the potential of rhetoric and gender problems
♦ The third axis: the commandment between the rhetorical purpose and the aesthetic dimension
♦ The fourth axis: the testator and the attribute of vulnerability
♦ Axis 5: Recommended and intimidating
♦Axis 6: Will and diversity in arguments

These above axes represented the research plan.